سَـنَـعْـلَـمُ مَـنْ أوْفَـى ومَـنْ خَـاسَ عَـهْـدُهُ
ومَـن كَـانَ مِـن آتٍ إلَـيْـنَـا وذاهِـبِ
وتَـظْهَـرَ أحْـوالٌ يَـروقُ سَمَـاعُهَـا   فيَـرْغَبُ فِي أمْثَالِهَـا كُـلُّ راغِبِ

وإن العرب تأخروا قليلاً، فخاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم نيتَه العازمَة على الجهاد ويسترحلهم، بهذه القصيدة أيضاً وهي من قول ابن عياش[1] : (طويل).

اقِـيمُـوا إلـى الـعَـلْـيَاءِ عُـوجَ[2] الـرَّوَاحِـلِ
وقُـودُوا إلـى الـهَـيْـجَاءِ جُـرْدَ الـصَّـواهِـلِ
وقوموا لنَصْرِ الدِّين قومةَ ثـائِرٍ   وشُدُّوا على الأعْداءِ شدَّةَ صائِلِ
[277] وأسْـرُوا بَـني قَـيْسٍ الى نَـيْلِ غـايَـةٍ
مِنَ الـمَـجْـدِ تُجنى عِـنْـدَ بَـرْدِ الأصـائِلِ
فما العِزُّ إلا ظهرُ اجْرَدَ سابِحٍ   تموتُ[3] الصبا في شدِّه المُتَواصِلِ
وابيَضُ مأثورٌ كأنَّ فِرَنْدَهُ   على الماءِ مَحْبوكٌ[4] ولَيْسَ بسائِلِ
بَني العَمِّ من عَلْيا هِلال بن عامرٍ   وما جَمَعَتْ من باسِلٍ وابنِ باسِلِ

(1) نسب المراكشي في المعجب هذه القصيدة للخليفة عبد المؤمن نفسه، وتبعه في هذه النسبة بعض الأدباء والمؤرخين ممن كتبوا عن الحياة الأدبية على عهد الموحدين، وهي كما ترى - حسب قول ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر - لابن عياش، ولستُ بهذا أنفي شاعرية عبد المؤمن فقد تضافرت النقول على ذلك، ولكنا نشك في نسبة المراكشي هذه المقطوعة له.
أنظر المن بالإمامة صفحة 5.
المراكشي، المعجب، ص 225 — 226 - الحلل الموشية 131 - عبد الله كنون، النبوغ المغربي المطبعة المهدية، تطوان - جزء ثان ص 266 - محمد المنوني - الآداب على عهد الموحدين نشر معهد مولاي الحسن - تطوان ص 159.
Pronvençal: Notes D'histoire Almohade Hesp. X 1930 p. 66.

(2) كذا في المخطوط جمع عرجاء، وفي المعجب (هوج) جمع هوجاء.
(3) في المعجب تفوت الصبا، وعلى كل فالمراد أن السابح يفوق ويطغى. على ريح الصبا بعدْوه المتواصل.
(4) في المعجب: منسوج.

تعالَوا فقدْ شُدَّتْ إلى الغَزْوِ نِيَّةٌ   عَواقِبُها مَقْصُورةٌ[1] بالأوائِلِ
هِيَ الغزْوَةُ الغَرَّاءُ والموعِدُ الَّذِي   تنجز في أُفُقٍ[2] المَدَى المتطاول
بِها تُفْتَح الدُّنْيا بِها تُبْلغ المُنَى   بِها ينصفُ التَّحْقِيقُ من كلِّ باطِلِ
عزْمنا وأمرُ اللهِ لا بدَّ واقِعٌ   على وَقْعَةٍ تُودي بدين الفَياصِلِ!
بجَيْش يضَلُّ الطَّيْرُ في حُجُراتِهِ   وتحجب عنه الشمسَ سُحْبُ القَساطِلِ
وتَحْسِر فيه الطَّرفَ من كلِّ جانِبٍ   بُحُورُ دلاصٍ عادماتُ السَّواحِلِ
ويُطْلِع ليلُ النَّقع فيه كواكباً   من البِيضِ أو مِنْ مُرهفات المَناصِلِ
ويُضْحي به بَحْرُ الدِّماء مفجَّراً   باسْمَرَ عسَّالٍ وابْيَض ناصِلِ
بأيْدي رجالٍ قَدْ وَفَوْا بعُهودهِم   وخاضوا لنصر الدين أمواج هايل
فما وَهَنُوا يَوْماً ولا فلَّ عزْمَهُمْ   ولا حَيَّرتهم مُعضلاتُ النَّوازِلِ
فطِيروا إلَيها يا هِلالَ بْنَ عامِرٍ   ثِقالاً خِفافاً بَيْنَ حافٍ وناعِلِ
ولا تخدَعُوا عن حَظِّكم من إجابَةٍ   تُبَوِّئُكُمْ في المَجْدِ أسْنَى المَنازِلِ
وتُقْطِعكم صدْرَ النَّدى[3] اذا نَبَتْ
بِمَن لَمْ يَكُن منكم صدورَ المَحافِلِ
اهبْنا بكُم للخَيْرِ والله حَسْبُنا   وحَسْبُكُم واللهِ اعْدَلُ عادِلِ
فما همُّنا إلَّا صَلاحُ جَميعِكم   وتسريحكم في ظِلِّ اخْضَر هاطِلِ
[278] وتَسْوِيغُكُم نُعْمَى يَرِفُّ نَضِيرُها[4]
عَلَيْكُم بخيرٍ عاجِلٍ غيرِ آجِلِ
فلا تَتَوانَوْا فالبِدارُ غَنِيمَةٌ   وللمدلج السَّاري صفاءُ المَناهِلِ!

(1) كذا في الأصل وفي المعجب: منصورة، والظاهر أن الصواب مقرونة.
(2) في المعجب (تنجز من بعد المدى).
(3) النـدى: مجلس القوم، ويعني أن هذه الاستجابة ستمكن الضعاف منكم من احتلال صور المجالس.
(4) في المعجب: ترف ظلالها. أنظر ص 226.

الاجابة من العرب الى الامر العزيز بالوصول

ولما وصلت الى العرب بنظر افريقية والزاب[1] والقيروان هاتان القصيدتان واوضحوا قراتهما، وتبيَّنت لهم معانيهما وفصاحتهما، وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار، ودفاع المنافقين الفجار، وطهَّر الله قلوبهم ونوَّر أفئدتهم وعيونهم إلى فهم ما دُعوا إليه مِّن الدخول في مسالك الأبرار الأخيار، أجابوا إلى الطاعة، على حكم الاستطاعة، بأكمل البدار، وكان من اليُسْر في هذا الاستدعاء، والبشر الموافق لهذا النداء، أن شيخ بني رياح وزعيمهم[2] جبارة بن أبي العينيْن كان قد فرَّ بنفسه قديماً عن هذا الأمر العزيز إلى بلاد مصر والحجاز واليمن وجال في تلك الأسقاع، وطاف في تلك البلاد طمعاً في مُعين - بزعمه - على الامتناع، وسعد هذا الأمر العزيز يرده عن ردَّته وأمثاله، ويقتل أقياله، ويقبل به منكوصاً على عقبه، راغباً إقباله، ولما لم يجد عن هذا الأمر العزيز بداً، ولم يرَ في تلك الأسقاع من يرفد رفداً، ولا من عنده عضداً، أبْعد مذهب ردَّتِهِ [279] وقرَّب اقتياد راحلته إلى بلدته، ميمّماً هذا المغرب الأقصى الذي ظهر فيه نور العدل، وزكى فيه أهل الهدى والفضل، بهدي الإمام المهدي، ونور خليفته أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبي يعقوب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنهم. وحين وصل بلاد أفريقية المذكورة، وجد أكثر بني عمه قد بادروا إلى طاعته هذا الأمر العظيم، والحركة الى الجهاد الكريم، أسرع بنفسه وإخوته قبل إسراعهم، وجَمَع قبيلَه الأخص قبل اجتماعهم، ولحق بهم أولاً الى السيد الأسنى أبي زكريا يحيى بن

---

(1) الزاب على طرف الصحراء الجزائرية وعاصمتها طبنة، وهو ثلاث مناطق: الشرقي والصحراوي والقبلي وفيها المياه والأنهار والعيون: الإدريسي صفحة 93 الاستبصار صفحة 171.

YVR: Ency. TIVp. 1246 — 47.

(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر محاولات زعيم بني رياح جبارة هذا في المشرق من أجل الحصول على عون الحكام هُناك، ولهذا لا نجد ذكراً له في الكتب التي عنيت - بصفة جدية - بهذه الحقبة من تاريخ المشرق.

ابن واصل: مفرج الكروب، أول نشر الدكتور جمال الدين الشبال 1953 ص 197 — 136.

الخليفة بمدينة بجاية مستقلياً عليه، مستعفياً لديه، فلقي عنده من الصّفح والعفو ما يوجد عند سيِّد كريم، على الصراط المستقيم. وأقام عنده إلى أن وصل قدَّاح[1] وأبوه وإخوته وأشياخ العرب بجمعهم، وتحرك السيد الأسنى أبو زكرياء المذكور إلى الحضرة العلية مراكش، فأقبلوا تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه، ووصل أيضاً العمال والأمناء بأفريقية: أبو محمد عبد الواحد اقوسقور[2] صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكرياء يحيى أقصور الهنتاتيان[3] ومعهم[4] . . . النعمان بن . . . . . .[5] بهؤلاء العرب والأموال والخيل العراب، العتاق الأحساب، المدرَّبة عند الأعراب، ولما وصلوا مدينة تلمسان صحبهم السيد أبو عمران موسى بن الخليفة[6] أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال مع عاملهم أبي الربيع بن عبد النور[7] وبالخيل المسوَّمة [280] الكثيرة الأعداد العوالي المعوَّدة المقدمة القوادم، الرجَح الأكفال، واجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع، فلما قاربوا الحضرة العلية أُمِرُوا بخطاب بر أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق في المشي واللحاق، والتؤدة في الوصول والارتفاق، والمحافظة على الخيل العتاق، فامتثلوا الأمر الواصل، وعملوا الرِّفق المتواصل. وكان عدد الخَيْل الواصلة من افريقية أربعة آلاف فرس، ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس، وخمسين حملاً من المال الصامت.

---

(1) لم نجد صدى لقداح هذا بالرغم من أن السياق يفيد أنه كان ذا منزلة مرموقة.

(2) يحذف ابن عذاري اسم اقوسقور. أنظر ص 80 من البيان المغرب.

(3) ذكر البيذق قليلاً من أهل هنتانة ولكنه اعتذر عن ذكر من لم يقف على اسمائهم، ويظهر أن عبد الواحد اقوسقور ويحيى أقصور كانا في جملة من ناصر حركة الموحدين من أول الأمر.

(4) هنا بياض صغير. . لكن ابن عذاري لم يأبه - أنظر صفحة 80 من مخطوط ابن عذاري.

(5) هنا بياض لكنه أوسع من الأول، ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يتثبت من والد التعمان لكنه لم يتمكن من ذلك أما ابن عذاري فلم يكلف نفسه التعلق بذكر الوالد. .

(6) لم يذكره ابن صاحب الصلاة ضمن أولاد الخليفة عندما كان يعددهم. راجع التعليق رقم 1. ص 156.

(7) اختصر ابن عذاري هنا فعدل عن ذكر أبي الربيع سليمان بن عبد النور. ابن عذاري ص 80.

لحاق الخبر السار بوفود السيدين والعرب

وكـان أميـر المؤمنين بن أميـر المؤمنين رضي الله عنـه قـد استقَـلَّ قبـل وُصُـول الخبر، فتمكَّن سـروره واستقلالُـه، وتضمن بفضل الله ولـطفِـه حبـوره واستبلاله، وعزم أن يكون خـروجه أولاً الى المسجـد الجامـع، وأن يؤدي فيه الفريضة يومَ الجمعة على أداء الراكع السَّاجِد الخاشع.

الخروج الى المسجد الجامع

[281] وخَـرَج إلى المسجد بعـد اتصال مـرضه المشهـور يوم الجمعـة السـادس عشر من ربيـع الأول عام ستـة وستين وخمس مائـة لحضور الصـلاة الفريضة فيه. وخطب الفقيه ابو محمد المالقي الخطبة المعلومة، وأسرع فيهـا وفي الصلاة بالتخفيف على أمير المؤمنين، ففهم النـاس من ذلـك خروجـه الى الصلاة، فاستبشروا وشكروا الله تعالى على شفايتـه[1] وتيقَّنوا اليُمْن وانتـظروا، ودعوا إلى الله تعالى في دوام أيامه، ونصر أعلامـه، وظهرت البشـرى في تلك الساعة عند افتتاحه الصلاة وسلامه، وبعد فراغ الفريضة صاح الناس بالجامـع بظلاماتهم[2] وأبْدوا الشكوى بطول مدتهم واقامتهم، فانصرف بعد الدعاء وقـد أمر بكتب مسائلهم وفُهم من عدله قضاءُ وسائلهم.

فلما كان يـوم السبت الثاني من خـروجه، وهـو السابـع عشر من الشهـر المـذكور قـدم النظر في إقـامة الحـدود على أهل التعـدي، وأمر القـاضي أبـا يوسف حجاج بن يـوسف[3] بتظلع أحـوال المسجونين، وإنصـاف المظلومين، ولما كان يوم الاثنين التاسع عشر من الشهـر المذكـور أمر بفتح الباب المغلق المعروف بباب الأسطوان[4] الذي كان من عادتـه الجلوس في داخله، واجتمع

---

(1) مرة أخرى يكتب الناسخ شفايته بدل شفائه. أنظر التعليق رقم 5 صفحة 324.

(2) عادة معروفة وما تزال إلى الآن.

(3) كان في أبرز قضاة الخليفة، ابن أبي زرع، جزء ثان ص 175.

(4) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا الباب. المنوني: ص 250.

الموحدون أعزهم الله لمشاهدة فتحه، ففتِح وبُسط موضـع الجلوس فيه. وقـد كان أعد كسوة للسَّقايف المسماة بمنتيقمي[1]. [282]من الحصور، فبسـطت فيها أحمال الحصى والرمل، وفـرشت في وسط صحن الدار التي يمشي فيهـا الناس، وطبع الموضع على أتقن مـا كان، وعلى أرتب هيبـة تقدمت. وجلس رضي الله عنه ودخل عليه أشياخ المـوحدين وأشيـاخ طلبة الحضـر والوزيـر أبو العلا ادريس بن أبي اسحق وأخوه أبو محمد عبـد الله قائمـان بترتيب الـدخول بـالناس، وسلَّمـوا عليه ودعـوا له وهنُّـوه على عافيته وشفايتـه. ثم إن الوزيـر استـدعى أشياخ النـاس من الأجناد وأهـل الاعتقاد والخـاصة من أهـل الوفـود والقُصَّاد، وأدخلهم للسلام، دون كلام. وقام الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر وخطب خطبةً فصيحةً باللسان الغربي للموحدين يشكر الله تعالى على العافية والشفاية، وخطب القاضي أبو يوسف خطبـة بليغة في معنى الشكر لله تعالى والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين، وتلاه الفقيه أبو محمـد المـالقي بمثل ذلـك على أوضح البيـان والتبين، من وصف خيرات الله تعـالى ونعمه بكمال الدين، وتخفَّفت الحال في الجلوس، وكان هذا اليـوم من أسْعَد الأيام في التأنيس.

الصدقة والحنان، والانعام والاحسان.

[283] وعندما كان الخير والبشر بما ذكرته تصدَّق أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه على الضعفاء، والوافدين الغرباء، وجـاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفـاء، وحاز بصـدقته الأجـر من الله وعند النـاس بجميل الثنـاء، فمن رجل ترى بيده ثلاثين دينـاراً صدقـة! وآخر كـذلك، إلى جميـع من كتب اسمه من الصنف المسكين؛ الملحوظ بعين الدين، لم يعتقد ذلك في زمانـه، بل صانه فضل الله تعالى بحسن صيانـه، وسيق إليـه الإنعام قبـل رهانـه، فهو مُبتهلٌ بالدعاء إلى الله تعالى في دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة على

---

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 200. Huici — 246.

أوفى المـزيد بـالتَّمهيـد، فعم الفضـل والانعـام، ورحـل عن الضعفـاء الفقـر والإعْدام، وتخيّلوا الصدقة كأنها أحلام. وكان بحضرة مراكش حرسهـا الله في جملة الوافدين القاصدين الشاعر المسن أبـو الحكم بن رضى البلنسي[1] ممن صحب أشياخ السيرات، ثم أخرجته الفتن والمحن من بلده وتـردد في البلاد، فوصَل الحضرة العلية مسترفداً فضلها وعدلها، وأقام فيها مدة سنتين على حالة ضيقة، ونية لوطنه وأهله شيقة، ويتعرض للوزير أبي العلى بن جامـع، وللفقيه أبي محمـد المالقي في كـلِّ يوم يَصِف لهمـا قصـده، ويـرغب من الله تعـالى تـوسُّطهمـا رفده، فيعِـدانه ويسليـانه، فلمـا سنَّى الله الخير والبشـر بـاستقـلال الخليفـة وجلوسه، وابتسـام [284] وجه الـزمان بعـد عبوسـه، رفعا مسئلتـه، ووصفا حالته وهيئته، وذكرا أنه من أهل الشعر وأنه صنع قصيدة يرغب وصولها إلى الموضع العالي، ليتشرف بقبولها على ممر الليالي، فأذن له بذلك فأدخلاه للسلام والانشاد، وسعيا له في الاسترفاد، فدخل وقبَّـل اليد المبـاركة، وأنشـد قصيـدةً ذكر فيهـا ما تقـدم من الفتوح، ولـوح بحاجتـه وشـوقـه إلى بلده أكثـر التلويح، وهي طويلة ليست في الغرض مقولة[2]: (بسيط).

مُســامِــري وخَبيــرُ القَــوم مَسؤولُ   حــدِّث فقـولُـك مَسْمـوعٌ ومقبُــولُ
حـدِّثْ فـانكَ قـدْ اسْمعتَنـا حَسنَـا   وعــطَّرَ الافـقَ ذاك القـال والـقِيـلُ
ألستَ عن سِيَــر المَهْـدِيِّ تُخْبِـرُنـا   ومَن عنِ اللهِ نَـبَّى عَـنْـهُ جِبْـريــلُ!
وعَنْ حَــوَارِيِّــهِ الأسْنَـى وصفـوتــه   وسيفــه حِينَ سيف الـدِّيـن مَفْـلُول
وعن بَنِيه مصابيـح الهُـدَى ظَهَـرَتْ   فـي كُـلِّ داجِيــةٍ مِنْهُـم قَنـادِيــلُ
وسُقْ حَـديثَ أبي يَعْقُـوبَ مِنْ طُـرقٍ   فَفي سيــاقتِـه المــأمُــولُ والسُّــولُ
اعــادَ وَالقَـوْمُ قَــدْ مَلُّوا السُّرى فهُمُ   مِنَ الـــدُّرُوبِ على أكْــوارِهِم مِيــل

(1) هـو المنذر بن رضى من أهـل سرقسـطة وسكن بلنسية يكنى أبـا الحكم، وكان أديبـاً شاعـراً. ابن الأبار، التكملة الأول رقم 1107 ص 389.

(2) نلاحظ ابن صاحب الصلاة هنا ينتقد قصيدة أبي الحكم بأنها خارجة عن الموضـوع وطويلة، وأنت ستشعر بشيء أكثر من هذا وأنت تقرأ القصيـدة ستشعر أن نسجهـا مهلهل ولعـل للتحريف أيضـاً والتصحيف دخلاً في هذا.

فخلتُهُم مِن عِقَـالٍ أنْشِطوا[1] طَـرَبـاً   والنَّفْسُ تَبْعَثُهـا هَــذِي التَّعـالِـيـلُ
وخلتُ أنَّ الحَيَـا لمـا أعـادَهُـمـا   فــالمـاءُ مــطَّردٌ والـزَّهْـرُ مَــطْلُولُ
مَلكٌ تــودُّ مُلوكُ الأرْضِ لــو غَنِيَتْ   وحــظُّهـا مِنْــهُ في يُمْنـاهُ تَقْبِـيـلُ
قـادَ الجُيُـوشَ يغصُّ المَشْرِقَـانِ بِهـا   والمَغـرِبـانِ كمـا غصَّتْ خَـلالِيـلُ[2]
[285] مِنْ كُـلِّ مُعْتَـقِـل سَمْــراءَ لَـهْـذَمُـهـا
أووجَــهُـهُ في ظَــلامِ الــخَـطْبِ قِنْـدِيـل[3]!
أو مُـرْتَـدٍ لِـحُسَـام مـثـلِه دَرِبٍ   وغـايَـةُ السَّيْفِ مسْنُـونٌ ومَصْقـولُ
أو مُـخْتَـبٍ فـوق مِـثْـل الـنِّـهْـي سـابـغـةٍ
وعــضُده تَــحْــتَ ثَـنْـي الـدّرعِ مَـحْـلُول[4]
أو راكـبٍ فـوْقَ مَـتْـنِ الـمـاءِ مُـرْتَـفـقٍ
كـأنَّـهُ قَـيْـصَـرٌ والـقِـلْعُ إكْـلِـيـلُ[5]
فـالــبـرُّ كـالـبَـحْـرِ إذْ تُـسْـتَـنُّ ادرُعُـهـا
والـبَـحْـرُ كـالـبَـرِّ إذ يَـصْـطَفُّ اسْـطول[6]
ولَمْ يُفِـدْهـا[7] لمَن نـاوَى مـظاهـرة   سِيـان بـالنَّصْـرِ تكْثِيـرٌ وتَقْلِيـلُ
لـكنَّهـا هِمَّــةٌ أوْفَتْ عَلى رَجُــلٍ   ومقْتَضى الملْكِ تَـرْهِيبٌ وتهـويـل
وقـامَ بـالأمْــر مِنْــهُ حــاذِقٌ طبِـنٌ   مستجْمِــعٌ حـاسِــرُ الكمِّيْن مَجْدُول

(1) أنشط العقال حله وفك أنشوطته.

(2) يقصد به في الظاهر جمع خَل بفتح الخاء، أي أنه غص المشرقين والمغربين كما يغص المرء بشرب الخل، ولا يخفى ما فيه من حموضة!

(3) يعني أن الملك قاد الجيوش المتألفة من الأبطال الذين يحملون القسي السمراء تخالهم وتخالها في ظلام الخطب قناديل مسرجة!!

(4) النَّهي: الغدير، أي... والمتألفة من الذين يحتبون فوق دروع سابغة تحاكي في صفائها صفحة النهر بينما سواعدهم تعمل عملها من تحت ثنايا الدروع...

(5) ومن الذين يركبون القطائع البحرية متكئين على مرافقهم كأنما هم قياصرة توّجتهم قلاع المراكب.

(6) استن الفرس: عدا إقبالاً وإدباراً أي إنه لا فرق لدى الجيش بين بـر وبحر، فـإن البر يمسي بحـراً إذا تحركت الجياد، والبحر يغدو براً إذا أخذت الأساطيل ترتيبها...

(7) يعني - فيما يظهر - أن الجيوش لا تؤثر فيها مظاهرة المناوئين، وسيان لديها أكانت جحافلهم قليلة أو كثيرة...

ثَبْتُ الجَنانِ ربيطُ الجَأشِ ذُو رِعَةٍ
إذا تَعارضَ تأويلٌ وتأويلُ
عِلماً بأنَّ الرَّعايا في كفالَتِهِ   وأنّه عنهُمُ لا بُدَّ مَسْؤولُ
مِنْ قَيسِ عَيْلانَ حيثُ المُلكُ متَّسِقٌ
وحَيْثُ كلُّ فَعالِ الخَيْرِ مَفْعُولُ
وحَيْثُ للأمْرِ فُسْطاطٌ دَعائِمُه   قَنا لِدانٌ وأسْيافٌ مَقاصِيلُ
قَومٌ إذا ما رَضُوا فالرَّوْضُ حَوْزَتُهم
وإنْ هُمُ غَضِبُوا فالحَوْزَةُ الغِيلُ
يَسْتأثِرونَ مِنَ البُؤسى بشِدَّتِها   فَيَبْخَلُونَ وما لِلْقَوْمِ تَبْخِيلُ
ويُؤثِرونَ مِنَ النُّعْمَى بجِلَّتِها   فَيَسْتَوي فاضِلٌ فِيهَا ومَفْضُولُ
لا يَطْعَمُونَ سِوَى ما انْضَجَتْ لَهُمُ
نارُ الوَغَى وصَفَايا الزَّادِ مَبْذُولُ(1)
القائِمِينَ بأمْرِ اللهِ لا رُهُنٌ   ولا كُسالَى ولا عُثْرٌ مَهابِيلُ
والصَّابرين عَلَى البَأسَاءِ ما عَلِمُوا   والنَّاصِرين ودينُ اللهِ مَخْذُولُ
رَآهُ أهْلاً أميرُ المُؤْمِنِين لَهَا   والرَّأيُ مِنْهُ عَلَى التَّوْفِيقِ مَجْبُولُ
[286] مِنْ بَعْدِ شُورَى وتَبْيِيتٍ لِرأيِهِمُ
وصَيْقَلُ الرَّأيِ تَخْمِيرٌ وتَنْخِيلُ
ومَن تَكُونُ بِنُورِ اللهِ نَظْرَتُهُ
رأى الصَّوابَ وسَتْرُ الغَيْبِ مَسْدُولُ
ما اخْتارَ إلَّا مَنِ اخْتارَ الإلاهُ لَها
ولَيسَ عَمَّا أرادَ اللهُ تَحْوِيلُ
كَفَيْتَه فَوْقَ ما اسْتَكْفاكَ مُضْطَلِعاً
ومُنْتَهى السَّهْمِ قَبْلَ النَّزْعِ مَجْهُولُ (2)

(1) الصفايا: ما اختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة يعني أن الصفايا مبذولة للناس.

(2) لا يخفى ما في هذا الشطر من بركات! .

وحمَّلتك اللَّيالي فَوْقَ ما احتملتْ   فنُؤتَ والعِبْءُ تَخْفِيفٌ وتَثْقِيلُ
فانْهَضْ إلى حَيْثُ لا الأوْهامُ تُدْرِكُهُ
فمَرْكَبُ السَّعْدِ بالإدْراكِ مَرْجُولُ(1)
وافاكُم(2) من كل أوبٍ وفدُه عنقا   جِيلٌ يُبادِرُه من حبِّهِ جِيلُ
حتَّى تلاقَتْ على أبْوابِ سُدَّتِكم   شَتَّى الوُفُودِ فتعظِيمٌ وتَبْجِيلُ
بأنْفسٍ خلُصَتْ منها ضَوامِرُها   فكُلُّ صدْرٍ من الشَّحْناءِ مَغْسُولُ
مُسْتَمْسِكِينَ على هَدْيٍ بطاعتِكُم
وحَبْلُ طاعتِكُم باللهِ مَوْصُولُ
مِنْ كلِّ مُوفٍ على قَوْداءَ ضامِرَةٍ   من الرَّجاءِ لَها نَصٌّ وتَبْغِيلُ(3)
إلى إمامِ الهُدَى أسْرَتْ بأرجُلِنا   ريحُ الشَّمالِ وإلا فالشَّماليلُ(4)
ولا حُداءَ سِوَى ذكراكُم .ومُنى   كالأخْذِ بالكفِّ للرَّاجي وتأميلُ
وغيْرُ شَوْقٍ إلى لقياكم سَدِكٍ   بِبَعْضِه هو قلبُ الصبِّ مَتْبولُ(5)
حتَّى نَفُوزَ بذكراكُمْ ونجْعَلَها   لقاءةً هِيَ تشريفٌ وتَفْضِيلُ
ويَالغَوْغاءِ مُغْتَرِّين في جَبَلٍ   بناعقٍ شأنُه في النَّاس تَضْلِيل
يَرَى الغنيمةَ في يومٍ يَكُونُ لَهُ   عَلَيْكُمُ فيه أهْلَ الأمْرِ تَطْفِيلُ
والمُلكُ ليسَ بشَيْءٍ يستقِلُّ بِهِ   إلا ذَوُوه الصَّنادِيدُ البَهالِيلُ
[287] ولَوْ رَمَى بِيَدِ الإذْعانِ من كَثَبٍ
قَبِلتُمُوه، فإنَّ التوبَ مقْبُولُ
أوْلَى لَهُم ثُمَّ أوْلَى أن تَحُلَّ بِهِمْ
-لَولا تَشَبُّثُكُم- صمَّاءُ دُؤلُولُ(6)

(1) مرجول: مقصود بالأرجل لعله يقصد أن مركب الإمام لا يبلغ . . . !

(2) كذا في المخطوط ولو حذفت من لاستقام الوزن.

(3) كثيراً ما تذكر بعض القوافي بقصيدة كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول . . .

(4) كذا في المخطوط ويظهر لي أن الأصل: كان هكذا: «وألف شماليل» يعني جمال مؤنسة سريعة.

(5) سدك بالأمر أولع به ولم يفارقه ثم لا يخفى ما في قوله: ببعضه هو الخ من ركاكة واضحة.

(6) الصماء: الداهية والدؤلول: بالدال المهملة: البالغة . .

لم تتركُوهُم وقَدْ أعيَتْ مئاخِذُهُمْ   وإنَّمـا هـو إعْـذَارٌ وتَـأجِيـلُ
وكـانَ فيمـا مَضَى ردعٌ ومـزدجَـرٌ   لـو كـانَ لِلقَـوْم تفكيـرٌ وتَحْصِيـل
أَمَـا كفتْهُم بسمَّـارٍ[1] وتـادِلـةٍ[2]   ومـا وَراءهُمـا تِـلْكَ الأفـاعِيـل
أمـا أتَتْهُـم أحـاديـثٌ بـأنـدَلُسٍ   وفي الأحـاديث تَجْمِيل وتفصيـلُ!
إن الأولى نـاصَبُوا جَهْـلاً بقَدْرِهم   وقَـدْرِ ذَا الأمْر قَـدْ غـالتهم غُـول
حـالـتْ عَلى ابن عُـبيـدٍ[3] بَعْـدَ اقـرعِـه[4]
بِـهَـا، فـأردتْـهـمـا رَجْـراجَـةٌ جُـولُ[5]
ولَمْ تَـدَعِ مـردنيشـاً عندَ جَـوْلتِهـا   يـومَ العُـرُوبـةِ إلاَّ وهْـو مـذْهـول
سـائِل بغـرنـاطـةٍ عنْهُم ومرسيـةٍ   فعنْهُمْ خَبَـرٌ في الـنَّـاسِ مَنْقُـول
يـجبْـك هـامٌ وأشـلاءٌ مـمـزَّقَـةٌ   في كـلِّ قـاعٍ ومفـؤودٌ ومَشكُـولُ
كـأن أنْصارَهـم أنـصـارُ أبـرهـةٍ   ومِنْ رِجـالاتِكُم طيْـرٌ أبـابِيـلُ[6]
لا تـشـغَـلنَّ بـهِـم بَـالاً فـانَّـهُـمُ   لجـائِع المَـوْتِ مَشْرُوبٌ ومـأكُـولُ

---

(1) لم نعثر على موقع هذا المكان من خلال كتب الأقدمين ويظهر أنه هو (حصن اسمار) الذي حاول أن إليه ابن منخفاد في جبال غمارة، وهو الذي يشير ابن حربون في شعره:

وَلَقَـلٌ ما أعطـى مقادتـه الذي   أمْسَـى سمير الفرقـدين بسمًّرا

انظر تعليقنا رقم 3 ص 250 ورقم 1 ص 252.

(2) تادلة: مدينة قديمة كثيرة الخيرات والأرزاق، وقد بنى فيها الملثمون حصناً عظيماً منيفاًثم كان الموحدون الذين اهتموا بالمدينة. ويظهر أن الشاعر يشير إلى غزوة تادلة التي تمت سنة 530 من طرف عبد المؤمن، وقد نقل ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة أنها أول غزوة غزاها الخليفة بعد الإعلان بالبيعة.
الاستبصار ص 200 ـ نظم الجمان (مخطوط) معجم البلدان، جزء ثان ص 5.

(3) ابن عبيد الله صهر ابن مردنيش راجع التعليق رقم 4 ص 134.

(4) هو حفيد البرهانس ـ انظر التعليق رقم 2 ص 127.

(5) الرجراجة الجماعة الكثيرة في الحرب، والجول الكثيف من الخيل...

(6) تلميح لقصة أبرهة ملك الحبشة الذي بنى بيتاً باليمن، وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة فذهب أعرابي وأحدث في البيت فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعه وركب فيله (محمود) وقصد مكة فلما وصل قريباً منها فر أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فكلمه فيها فقال له كيف تكلمني في الابل ولا تكلمني في الكعبة وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك؟ فقال له أنا رب الابل وأن للبيت رباً يحميه! فبرك الفيل ولم يتوجه إلى مكة... فبينما هم

وَسوْفَ ياتِيكَ عَنْ قُربِ زعيمُهُم[1]   قَسْراً على كلّ حَالٍ وهْوَ مذْهُول
وليهنِكم أن هَـذَا العِيـدَ عـادَكُمْ   وحُسْنُـه بكمُ للنَّـاسِ مَـوْصُـولُ
بـرزتُمُ للمصلَّى نـاسكيـن لَـهُ   شعـارُكُم فيـه تَكْبِيـرٌ وتَـهْلِيـلُ
فكـلُّ قـولِكم أو كـل فعلِكُم   فَفِي كتـابٍ مع المَقْبُـولِ مَقْبُـول
مَـولايَ كـمْ لِي أُمَـنِّي الـنّـفسَ مِنْ سَنَـةِ
بِـذَا الـمقـامِ وجِـدّي فيـه مَـمْـطُولُ!
هـجـرتُ بـالشَّـوْقِ دَارِي فـي محـبَّـتِـكُـمْ
لا الـعَيْشُ ضـنْـكٌ ولا الـمـحْبُـوبُ مَـمْـلُولُ
[288] وجِيرةٍ لم يَزالوا مُهْطِعين إلِى   داعِيكُم وحُسـامُ الخَـوْفِ مَسْلول
يسْتَبْـطِئـون (عَسَـى) أو يَـرْقُبـون (مَـتَـى)
وفـي (عَـسَـى) و(مَـتَـى) انسٌ وتَـعْـلِيـل!
والآنَ واللهُ قَـدْ سَنَّـى لِـقـاءكُـمُ   فقَـدْ تَـأتَّى بـحَمْـدِ اللهِ مـأمُـولُ
وقـد وهـبْـتُ لِـدَهْـرِي مَـا جَـنَـا وجَـنَـا[2]
الـجُـرْحُ مـنـدَمِـلٌ والـذَّنْـبُ مَـحْـمُـول
والله يُـدْنـي ـ وهَذَا الأمـرُ عـن كَـثَـبٍ ـ
مـن داره الـحَـزْنُ مِـمَّـن دَارُه صُـول[3]

وحين أكمل إنشاءها حسَّن أشياخ المجلس العالي فصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر ـ رضي الله عنه ـ بأسهامٍ بمدينة مالقة وزادٍ،

= كذلك أرسل الله عليهم طيوراً أبابيل متجمعة تحمل الحجر وترمي به أنصار أبرهة. انظر كتب التفسير عند سورة الفيل.

(1) يعني به اذفونش الصغير فهو أبرز من كان ـ في الظروف الحالية ـ خصماً للموحدين.

(2) كذا في أصل المخطوط.

(3) اقتباس من قول حندج المري الحماسي في باب السير والنعاس من ديوان الحماسة:
في ليل صول تناهى العرض والطول
إلى أن يقول:
مـا اقـدر الله أن يُـدني على شـحط   من داره «الحـزن» مِمًن داره «صـول»

وانصرف مملوءاً الحقائب، بيده ظهير كريم بالتنويه به في البلاد، وبمواساة مستمرة له في ديوان العمل بالغير العتاد [1].

(الانعام بظهير الولاء على ابن صاحب الصلاة)

وأنعم في إثر ذلك بالدخول عليه والسلام، والمثول بين يديه وبالكلام، على أبي العباس المجريطي القرطبي [2] من طلبة الحضر، وعلى أبي الأصبغ عبد العزيز بن عبد العزيز الإشبيلي [3] من الطلبة أيضاً.. وعليّ معهم [4] فاستدعانا الوزير ابو العلا إدريس بن أبي اسحاق بن جامع والفقيه ابو محمد عبد الله المالقي، وأدخلانا على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو متّدع عند استقلاله من ضعفه، متكىء على مخاد كثيرة وثيرة، قد فرشت تحته وحواليه في مجلسه العالي، تُعِينه على القعود، وتُدَمِّثُ له موضعه المطلع له بالسعود، فسلمنا عليه بالخلافة، [289] وأنافت بنا فضائله وصدقته أكرم إنافة، وسألنا - بعدله - عن أحوالنا، وفهمنا منه الحنان واستقبال آمالنا، فدعونا له بالنّصر والظفر، والتّمكين بطول العمر، وقبّلنا المباركة يده، واستنلْنا مشربه العذب ومورده، وارتوينا غَمْره الدار وثمده [5]، وخرجنا من مجلسه العالي وتشريفه قد حف بنا من كل جانب، واقتفينا على أعلى المراتب، وبلغنا ما أملناه من الرغائب، وأمر رضي الله عنه لكل واحد منا بما أمله من

(1) يظهر أن الأصل «بالغير المعتاد».
(2) لم نقف على ترجمة لأبي العباس هذا فيما بأيدينا من معاجم الأدباء الموحدين هذا إلى أنه لم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة سوى في هذه المناسبة.
(3) ترجم ابن الابار في تكملته لرجال يحملون اسم عبد العزيز بن عبد العزيز.. ويحملون لقب أبي الأصبغ لكني لم استطع الجزم بايهم كان صحبة ابن صاحب الصلاة في دخوله على العاهل الموحدي. انظر الترجمة رقم 1770.
(4) نلاحظ أن ابن صاحب الصلاة يمشي في مراكش فلعله ورد ضمن وفود المهنئين بالشفاء...
(5) الماء المحتفظ به، واستعاره لما ناله في رحال الخليفة من عطاء.

إنعام، وخصني منهم [1] بظهير [2] كريم بأسهام، ومواساة معها أعانتني على الزمان الذَّميم وأغنتني عن اللئام، ووسمتْني بميسم الأولياء للأمر العزيز المنصور الأعلام، جازاه الله تعالى أحسن ما جُوزي به الأيمة المهتدون والخلفاء الراشدون، وخلد الأمر العزيز في عقبه، كما اثبت النسب الشريف في نسبه ومنصبه، وأوضح الدين الحنيفيّ بمذهب، فحُقَّ على العبد تَدْوين [3] سعد أيامه، وتعيين الزمان بنصر أعلامه وإمامته، فقد قال رسول الله ﷺ (جبلت القلوب على حب من أحسن اليها، وبغض من أساء إليها) [4]، خلّد الله ملكه وجعل الأرضَ - بما وعده - ملكه فانه ألبس الدنيا جمالاً وجدد لأهلها بخلافته آمالاً.

الامر بالنظر للتبريز للقاء السيدين [290] والعرب الوافدين من افريقية

ونفذ إليهم الأمر العزيز بموضع قربهم واستيذانهم أن يصلوا إلى الحضرة مراكش في ضحوة يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. وكان الأمر قد تقدم لجميع الموحدين والعسكر الباقين بالحضرة المذكورة أن يستعدوا وينظروا لأنفسهم في مراكبهم وهيأتهم، فقسمت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والعلامات والرايات. فلما كان في صبيحة يوم السبت المذكور المؤرخ بكّر جميع الناس من الحفاظ والطلبة من الموحدين وجميع القبائل من العسكر

(1) يلوح ان ابن صاحب الصلاة كان يمتاز عن طلبة الحضر، وهي التفاتة من الخليفة تنم عما كان يتوفر عليه المؤلف من مزايا ومؤهلات.
(2) ظلت كلمة «الظهير» مستعملة إلى الآن في العرف المغربي بمعنى المرسوم الملكي.
(3) يتأكد من هذا الكلام أن الكتاب خصص أولاً وبالذات لتاريخ أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وان الباعث كان هو هذا الاستقبال السعيد الذي أضفى فيه الخليفة على المؤلف من خيراته ومنح فيه ظهير الولاء.
(4) رواه أبو نعيم في الحيلة والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

المبارك إلى باب السدة[1] العظمى : سدة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين والوزير أبو العلا ادريس بن جامع مدير لهذه الحال الشريفة، الطالعة بالنصر المنيفة، لا يصدر شيءٌ إلا عن رأيه، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعْيه، وقد أحضرت الطبول السعيدة التي من أيام الإمام المهدي المربعة[2] الأشكال، السعيدة الأحوال، بالنصر والإقبال، وأضيف إليها من غيرها ما انكمل فيها مائة طبل، والموحدون يترادفون جُمَلاً جُمَلاً وزمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، على ما أمر به الأمر المطاع، وأمير المؤمنين [291] ابن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في موضع جلوسه منتظرٌ اعلام أبي العلا الوزير بكمال ترتيب الحال الموصوفة، حتى وصل إليه أبو العلا المذكور وأعلمه بكمال الأشغال، وحضور جميع الناس، على أكمل الإيناس، فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر، وخرج راكباً عليه وهي أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ المذكور، والوزير أبو العلا راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه، على حجابه، مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة خرج إليهم مستفهماً كلامه، موصلاً أعلامه، وفي ساقة أمير المؤمنين على قرب منه تابعاً له السيد أبو عبد الله محمد المخلوع، وإلى جانب سائر الإخوة الصغار، وبَني النبين أيدهم الله[3]، وفي ساقته أمام العسكرية ستة عشر علاماً

(1) باب السدة لعله يقصد (باب السادة) الذي كان مخصوصاً ببني عبد المؤمن والذي ينتهون اليه على خيلهم لكن الأقرب حسب سياق الكلام أنه يعني باب السقائف حيث مجلس الجماعة.
المنوني : ص 250.

(2) لم تتحدَّث المصادر التاريخية الموحدية ـ التي بين أيدينا ـ عن الطبول المهدية المربعة، ولكنها مع ذلك تحدثت عن تربيع السكة ولا يخفى أن المهدي كان معروفاً عند المؤرخين بصاحب الدينار المربع . . .
ابن خلدون العبر، طبعة بيروت المجلد الأول ص 470. المنوني ، الفنون على عهد الموحدين ص 239.

(3) يلاحظ التعبير الدقيق الذي يمتاز به ابن صاحب الصلاة عند وصف التشريفات الخليفية بعد أن تبوأ وظيفته الجديدة ونال ظهير «الأمانة» راجع ص 147.

كباراً من البنود المصنوعة المعدة لهذا الشأن، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين علام، وعليه درع سابغة، تلمع لمعان اللجين الخالص في شعاع الشمس، ومن معه يلبس درعاً سابغة وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد والجميع من الناس. فلما جاوز سيدُنا أمير المؤمنين باب الشريعة[1] وقف ينظر بعينه ويفكر في رأيه السعيد، الموفق السديد، [292] في أي موضع يكون اللقاء والاجتماع، إذ كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنيتها بسبب البحاير والجنّات المغروسات، فاتفق رأيه المبارك أن يتجاوز الشريعة إلى الفحص العريض هناك، فلما وصل الفحص المذكور وهو على هيئته المؤيدة والطبول قاصفة، والجيوش البارزة معه متكاثفة، أمر بقبَّة خباء فضربت له فيه ونزل فيها مع إخوته وبنيه، وأقبلت عساكر العرب من أهل افريقية والسيدين المذكورين، فأشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة والبارزة بعضها على بعض جرياً ولعباً، وفرحاً وطرباً[2]، ورأى الحاضرون والنظارون فيهم عجباً، ودام ذلك اللعب والطرب والطبول تضرب إلى أن مضى أكثرُ النهار، ثم أمر رضي الله عنه للوافدين بالنزول والسلام، فتقدم الأخوان السيدان : أبو زكريا وأبو عمران ثم أشياخ الموحدين ثم أشياخ العرب وجميع الوافدين من الناس، وفيهم علي بن منتصر[3] شيخ بجاية وأنظارها، وفي هذه الغزوة بدأ ظهوره إلى أن أدى به ذلك إلى مقتله حسبما أذكره، فلما أكمل الجميع السلام أمرهم بالانصراف إلى المدينة والدخول فيها، كل واحد إلى منزله قد نظر له، وانصرفت عامة العرب إلى مضرب محلتهم الذي حُد لهم النزول فيه، وكان في انصراف أمير المؤمنين بْنِ أمير المؤمنين [293] رضي الله عنه إلى داره بداخل الحضْرة للناظرين من المرأى الغريب العجيب ما

(1) حول باب الشريعة بمراكش، راجع التعليق رقم 1 صفحة 214.

(2) قد سلف له أن ذكر صاحب تونس عبد الواحد الهنتاتي ، وعامل تلمسان سليمان بن عبد النور ويضيف هنا إلى المسؤولين عليا بن منتصر شيخ بجاية ـ راجع صفحة 269.

(3) يعني في السفر الثالث وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، انظر ابن عذاري ص رقم 107

أبهت الناس، وضيق الغبار على الناظرين الأنفاس، وأذهب عن قلوبهم البأس، ورأوا في حالتهم عُرساً قد فاق الأعراس.

مبايعة اشياخ العرب الوافدين وعامتهم

ولما كان في اليوم الثاني من البروز المذكور وهو ثالث شهر ربيع الآخر المؤرخ أمر رضي الله عنه بدخول أشياخ العرب والوفود للمبايعة وأخذ العهد عليهم في ذلك، فدخلوا في يوم الاثنين الرابع من ربيع الآخر المذكور وتمادت بيعتهم المذكورة إلى يوم الأربعاء الموفى عشرين من ربيع الآخر المؤرخ وكملوا بالمبايعة.

خروج أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه الى البحيرة[1] لمعنى اطعامهم، والترحيب بالمامهم.

وخرج أمير المؤمنين رضي الله عنه يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع المؤرخ بعد صلاة الجمعة إلى البحيرة خارج حضرة مراكش فأطعم العرب والنّاس الوافدين [294] وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً، يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل وقد صنع ما تقدمت العادة به: نهر من رُبٍّ[2] ممزوج بالماء، كل ما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه وسلمت عليه ودعا لها ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب،

(1) عرفت «البحيرة» في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين فكانت ملتقى لمعركة بين عبد المؤمن والمرابطين لكن الموحدين عُنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم وهي تعني فسيحاً يحتوي على بِركة مائية واسعة تحيط بها الخضرة بالإضافة إلى أروقة يأوي إليها رجال الحكم، والبحيرة اليوم هي ـ فيما يقال ـ المكان المعروف باكدال في مراكش والذي كان (قصر المسرة) على عهد السعديين. بروفنصال ـ البيذق ص 199 ـ تعليق رقم 2 صفحة 232 ـ 233 ـ المعجب ص 192 . Deverdunn: Marrakech p. 204.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 113.

وأرى الناس في هذا الاطعام، ما أربى على ما تقدم من الانعام والاهتمام، وتمادى ذلك مدة الأيام المذكورة المعدودة. ولما كان في أحد الأيام حدث بين صبيان الموحدين الذين يمسكون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العرب كلام ونزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدت إلى اختطاف الثياب، واستلاب الجلباب، وتحزب الجهال من الاعراب[1] بالأحزاب، حتى وصل ذلك إلى الأمر بباب الدار عند الحجاب، فخرج إليهم طلبتهم من الموحدين أعزهم الله وأشياخهم من العرب وفرَّقوا جمعَهم، وأزالوا روعهم، وانجلت الحال عن سلبٍ كثيرٍ أخذوه للناس في الطريق، ومن كل فريق، ومات فيها أربعة أشخاص من عبيد للناس، وبعض أحرار من سائر الأجناس، واتصل الخبر بسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعدي في باب سدته، ولصق حضرته، فأمر برفع الطعام مدة ثلاثة أيام، عتباً على العرب، بسبب جرأتهم على سوء الأدب. ثم إن العرب تطارحوا [295] على العفو من الأمر الكريم، من قبيح ما جناه أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم، واعتذروا من فعل من لا خلاق له، فقبل سيدنا ومولانا الإمام توبتهم، وصفح جرأتهم، وأمر رضي الله عنه بصرف اطعامهم والتمادي على إكرامهم حناناً منه بسبب قصودهم والمامهم، وتمادى ذلك الى اليوم الخامس من جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. ثم أمر سيدنا بكتب أسماء كل من سلب له شيء، وما سلب لكل رجل من الثياب والأسباب[2]، وبكتب أسماء العبيد الذين ماتوا، وأسماء الأحرار الذين ذهبت أرواحهم بالتعدي وفاتوا، وأمر بجبر كل ما مضى للناس من ثيابهم، وقيمة عبيدهم ودوابهم، وودي الأحرار بدياتهم إلى قبائلهم، وهذه غاية العدل والكرم، الذي لم يتقدم لغيره في الزمان بالقِدم، رضي الله عنه وجعل الجنة مأواه.

(1) يلوح من بعض النصوص شبه «توريك» على أعراب أفريقية. راجع صفحة 297 ـ 304 ـ 507 ـ من المن بالإمامة.

(2) كذا في أصل المخطوط ولعل الأصل الأسلاب.

ذكر تمييز[1] العرب الوافدين ومن وصل معهم

ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى أمر سيدنا بتمييز العرب المذكورين، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر[2] داخل حضرة مراكش، وأن يكون دخولهم إليه بحيث يراهم ويطلع هيئاتهم، ليكون احزم له في النظر لعساكره [296] واصلاح حالتهم لمطالعته ذلك، فابتدأوا بالدخول عليه في يوم الأحد المؤرخ على ترتيب توحيدهم أولاً في قبائلهم السابقة لهذا الأمر العزيز وعشائرهم، فكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم في التوحيد، وأمروا أن يدخلوا في كل يوم بعددٍ معلوم من القبيل المأمور له، فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوماً يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر، ثم يرجعون بطائفةٍ أخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار، على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر. وسيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في مجلسه الكريم مع أشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ طلبة الحضر، وأشياخ العرب: يحرض العرب والناس على الجهاد، ويأمرهم بالجد والاجتهاد، ويعلمهم من أدبه الديني الكريم بحيث يروه هيبة وتعظيماً، وتوقيراً وتكريماً. ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الأولى المؤرخ المذكور أحضر سيدنا أشياخهم وكبراهم وطلبتهم: أبا محمد عبد الواحد أقوسجور[3] الهنتاني، وأبا زكريا يحيى بن[4]. . . . المعروف باقصور،

(1) تميز الجيش قبيلةً وهيئة عادة عرفت من أيام المهدي سنة 515 وكان يقصد به علاوة على ما فيه من تنظيم ضروري لسير الأمور، الحرص على انسجام الكتائب وتنسيقها، وقد كان للتمييز ـ لما له من أهمية ـ ديوان خاص.

البيذق 29 — 32 — 33 — 35، راجع التعليق رقم 1 ص 199 إقرأ صفحة 297.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 169 ـ المنوني ص 331.

(3) أقوسجور هذا هو نفسه الذي رسمه الناسخ في صفحة 331أقوسقر.

(4) لعل المؤلف هنا كان يحاول أن يذكر والد يحيى هذا وقد سلف له صفحة 331 أن نعت يحيى هذا بالهنتاتي.

والنعمن بن[1]. . . . وأحضروا زمام تمييزهم في الطريق قبل وصولهم إلى حضرة مراكش حرسها الله فوجد بين تمييزهم الأول، وهذا التمييز [297] المشرف لهم زيادة كثيرة في العدد على ما سمح لهم، رفقاً بهم، فلقد رأيتهم في أيام التمييز المذكور ينزل الخارج من الدار المعظمة من تمييزه عن فرسه ويركبه آخر من الرجالة لهم ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، وكان العربي إذا دخل يأخذ عمامة صاحبه فيبدأ بتعميمها وهي في رأس الخارج، فلا يزال يعتمها في رأسه وهي تنحل من رأس صاحبه حتى تتم بأعجل الاستعجال بمرأىً يضحك الحاضرين، وكذلك في إعارة الثياب وآلات الركوب يجرد بعضهم بعضاً على مرأىً من الناس، لا يهابون أحداً ولا آمراً. وفضْلُ سيدنا الخليفة رضي الله عنه يغضي لهم على هذا كله لمعرفته بحاجتهم وضرورتهم ولبدارهم إلى طاعته وانقيادهم لخلافته ولما في نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله تعالى فيتألف قلوبهم بذلك!

حدثني الكاتب أبو عبد الله بن محسن[2] كاتب ديوان التمييز لجميع العساكر المنفذ ـ بتجميله ـ البركات للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين قال: «دخلت على سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وفي يدي تلخيص زمام تمييز العساكر». فقلت له: يا سيدنا ومولانا وقفت على هذا التمييز ووجدت فيه زيادةً كثيرة على ما تقدم. فقال لي رضي الله عنه: نفذ لهم البركة على ذلك، إنما غرضنا الاحسان لأجنادنا وأن تظهر عليهم [298] الخيرات والبركات فامتثلت ذلك فجعل الله تبارك وتعالى البركة في جباياته، في جميع طاعته وجهاته، بسمحه في ذلك واحسانه وجزيل هباته، واتصال صدقاته.

(1) نفس البياض الذي سلف صفحة 331 لكنه هناك ترك أيضاً بياضاً قبيل النعمان.

(2) نعت ابن صاحب الصلاة وظيفة ابن محسن هذا بكاتب ديوان التمييز وسنرى صفحة 311 نعته بكاتب العسكرية، فهل التمييز يعني العسكرية؟ نحن نرى فعلاً أن التمييز يُلْجأ إليه عند العمليات الحربية.

ذكر تمييز الموحدين أعزهم الله لهذه الغزوة العظمى

ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم، ومنتهى مناولهم، وتربية صفاتهم، فامتثل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يوماً، وقسم عليهم الخيل المسومة الجياد الروقة على أعدادها المذكورة، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرّماح والدروع، والبيض والسيوف، وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة، من الآلات المذكورة الكاملة، على أتم النظر المبارك حتى كمل على أتم العزم والحزم، ثم أمر لهم بإعطاء البركة، عن الزاد لهذه الغزاة الملكة.

الإنعام بالبركة وإخراجها إلى العرب الوافدين وجميع عسكرية الموحدين أعزهم الله وأنجدهم.

وجلس أمير المؤمنين [299] في مجلسه العالي وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر لوزيره أبي العلى ادريس المذكور أن يأمر الخزانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت أكداساً. وجنّسها من الذهب والفضة أجناساً، وقدّم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير، ولغير الكامل ثمانية دنانير، وللراجل الكامل خمسة دنانير، ولغير الكامل ثلاثة دنانير. وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً، والراجل سبعة دنانير. وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مايتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي[1] والقمص والغفاير والعمائم، وأعطاهم السيوف المَحلاّة، والدروع السابغات، والبيض والقنا، من الرماح الطوال، وأمَرَ لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم واتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحدين وعلى

(1) جمع قبطية، أنظر التعليق رقم 4 صفحة 215.

جميع العساكر السرور وتمكن لهم الاستبشار والنشاط، وتضاعف لديهم الاغتباط والارتباط، وأمر للموحدين أعزهم الله بحظهم من الخيل المسومة المجلوبة المذكورة فقسّموها على قبائلهم ورجالهم، وهذا كله من [300] سيدنا نظرٌ إلى جزيرة الأندلس في هذه الغرفة الحافلة خلّد الله أمره، وأعزّ نصره.

خبر حركة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من حضرته مراكش في سنة ست وستين وخمس مائة التي كانت أول غزواته الى جزيرة الأندلس لاحياء رسمها، وضبط اسمها، ودفع النصارى الكافرين عن جهاتها والمنافقين المحاربين من جنباتها.

قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة: قد ذكرت فيما تقدم احتفال أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لهذه الغزوة العظيمة الحافلة واستدعاءه العرب من أرض إفريقية والزاب، وجمعه للموحدين والناس من أرض العدوة واستنهاضه فيها صنوف الأجناد والمطوعة، وإعداده لها ضروب الآلات والعدة، واستظهاره عليها بأبلغ العتاد والقوة، واستعماله لها غرايب الجُنَن والأسلحة، أخذاً بالحزم واستطالةً على المنافقين من آل مردنيش، والنصارى الكافرين. فلنذكر الآن حركته السعيدة.

كانت من الحضرة مراكش [301] صبيحة يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد، بموافقة اليوم الثالث عشر[1] من شهر مارس العجمي، من سنة ست وستين وخمس مائة، وخرج على باب كالة[2] من المدينة المذكورة وقد

(1) الموافقة مضبوطة هنا.
(2) باب دكالة من أقدم أبواب مراكش.
ALLAIN et DEVERDUN: Les portes Anciennes de Marrakech
Hesperis. Tome. WLIV 1957 page 105'